

تفسير سورة هود

روى الحافظ أبو يعلى عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شريك؟ قال: «شبيتي هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَيْدُ أَتَمَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة وأما قوله: ﴿أَتَمَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى. وقوله: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه، خبير بعواقب الأمور.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُرِّمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ .

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: 25] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] وقوله: ﴿إِنِّي لَكُرِّمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: «يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصحبكم، أستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

﴿وَأِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِنِّعْكُمْ مَلَائِئِمًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٣﴾﴾ وَإِنْ نَوَلُوا فإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ .

﴿وَأِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾ أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿يُمِنِّعْكُمْ مَلَائِمًا حَسَنًا﴾ أي في الدنيا ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي في الدار الآخرة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]. وفي الصحيح أن رسول الله قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك» عن ابن مسعود. في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة، وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده على أعشاره

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي، وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام الترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم. وللآية تفسير آخر، وهو أنهم كانوا يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً، أو عملوا شيئاً، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

أخبر تعالى أنه تكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض: صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها، أو مستقرها: حيث تأوي، ومستودعها: حيث تموت، أو مستقرها في الرحم، ومستودعها في الصلب، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك. قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ بِآيَاتِكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، وفي صحيح مسلم: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي البخاري في تفسير هذه الآية أن

رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك» وقال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار» وقال: «أفرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه وكان عرشه على الماء، ويده الميزان يخفض ويرفع». ﴿لِبَلْوَاكُمْ أَتُحْسِنُ عَمَلًا﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: 27] وقال سبحانه: ﴿أَتُنكِّمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، وعلى شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل. ﴿وَلَيْتَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ...﴾ أي ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَيْتَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87] وهم مع هذا منكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول.

﴿وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ...﴾ أي ولئن أخرنا العذاب والمواخظة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود، وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكديباً واستعجالاً: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي ما يؤخر هذا العذاب عنا؟ فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. (والأمة) تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وقوله: ﴿وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45] وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120] وتستعمل في الملة والدين، كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22] وتستعمل في الجماعة كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: 23] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: 36] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ [يونس: 47] والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيها الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما في صحيح مسلم «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا دخل النار» وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] وفي الصحيح، فأقول: «أمتي أمتي» وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [الاعراف: 159].

﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ﴾

نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له بأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً، ولم يرج بعد ذلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أي يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي فرح بما في يده، فخور على غيره. قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» ولهذا قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ﴿١٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١٣﴾ [العصر: 1 - 3].

﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تَارِكُوا بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ وَصَابِقُ يَدَيْكُمْ صَدْرُكُمْ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ .

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبرنا تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْسَىٰ فِي الْأَمْثَالِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرٌ ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: 7، 8] فأمر الله رسوله وأرشدته إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يشينه عن دعائهم إلى الله عز وجل أثناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَصْبِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: 97] وقال ههنا ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تَارِكُوا بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكُمْ وَصَابِقُ يَدَيْكُمْ صَدْرُكُمْ أَنْ يَقُولُوا﴾ أي لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلَ لَهُ كِتَابٌ فَآتَوْا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء. تعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَالْتَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿فَالْتَمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .
 عن ابن عباس في هذه الآية ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ : إن أهل الرياء يعطون بحسنتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا: صوماً أو صلاة، أو تهجداً بالليل، لا يعملها إلا التماس الدنيا، أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعملها لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، وقيل: نزلت في أهل الرياء. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٩﴾ [الإسراء: 18، 19] وقال: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾ [الشورى: 20] .

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ .

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [السر: 30] وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء». وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إن خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا ما لم أنزل به سلطاناً». ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكتملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن. ولهذا قال ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن، أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي ومن كفر بالقرآن

من سائر أهل الأرض : مشركهم وكافرهم ، وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن ، كما قال : ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام : 19] وفي صحيح مسلم : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي أو نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» : ﴿فَلَا تُكْ فِي مَرِيحٍ مِّنْهُ إِنَّهُ لَمَقْبُورٌ مِنْ رَبِّكَ . . .﴾ أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ تَنَزَّلُ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة : 1 ، 2] وقوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : 103] وقال تعالى : ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام : 116] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا : 34] .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

يبين تعالى حال المفترين ، وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء ، وسائر البشر والجان . وفي الصحيحين : «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كفه ويستتره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرزه بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول : ﴿الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ .

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ، ويجنبونهم الجنة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها .

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ .

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم : 42] وفي الصحيحين «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ولهذا قال : ﴿يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم

من شيء، بل كانوا صمًا عن سماع الحق، عميًا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار، كقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٢١].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ...﴾ أي خسروا أنفسهم، لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها، لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَبَّتْ زَيْدَتُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97] ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تجد عنهم شيئاً، بل ضررتهم كل الضرر.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ [٢٢].

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلوا الدرجات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم لهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٣].

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا من الإتيان بالطاعات، وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان والخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستنذات، والنظر إلى خالق الأرض والسّموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، وينامون ولا يتغطون ولا يبصقون ولا يتمخضون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا لَذَكَّرُونَ﴾ [٢٤].

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23] وأما المؤمن ففطن ذكي، لبيب بصير بالحق، يميز بينه وبين

الباطل، فيتبع الخير، ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبه، فلا يروح عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟! ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: 20].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله، إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يُبَدِّلُوا بَدِئَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ والملا هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا، ثم ما نراك أتبعك إلا الذين هم أرادنا كالباعة والحاقة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف، ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين أتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر، ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك، ولهذا قالوا ﴿بَدِئَ الرَّأْيِ﴾ أي في أول بادئهم ولا فكر، ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي فيما تدعونكم لكم من البر والصلاح، والعبادة والسعادة في الدار الآخرة: إذ صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، سواء اتبعه الأشراف، أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَىٰ عَنَانِهِمْ فَاسْتَكْبَرُوا ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: 23] ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال له: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل. وقوله: ﴿بَدِئَ الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق، والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عبي. والرسل صلوات الله عليهم أجمعين. إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. وقد جاء في الحديث أن

﴿قَالُوا يَبْنُوحُ قَدْ جَدَدْتَنَا فَأَكَثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ .
يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق ﴿قَالُوا يَبْنُوحُ قَدْ جَدَدْتَنَا فَأَكَثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أي حاجبتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي من النعمة والعذاب، وادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ .

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٣٣﴾﴾ .
﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء .

﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿وَلَا يَنْفَعُكَ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ...﴾ أي أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم، وإنذاري إياكم ونصحي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي إغواءكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو مالك أزمة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق، وله الأمر، وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .
هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكداً لها، مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون، أفتري هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي فإثم ذلك علي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْحَرُمُونَ﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا يَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿لَا نَذَرُ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26] ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَلُوَبٌ فَانصُرْ ﴿٣٦﴾﴾ [الفر: 10] فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم، ولا يهمنك أمرهم .

﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .
﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ﴾ يعني السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا ﴿وَوَحَيْنَا﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ .

﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (٣٨).

﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي يهزؤون به، ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ...﴾ وهذا وعيد شديد، وتهديد أكيد.

﴿فَسَوْفَ نَعْلَمُكَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٩).

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهبتان الذي لا يقلع ولا يفتقر، بل هو كما قال تعالى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثِيرٍ﴾ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَعِيَ الْمَاءَ عَلَيَّ أَمْرٌ قَدِ فُيِّرُ ﴿١٢﴾ وَحَلَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرِ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾ [القر: 11 - 14] وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنوير التي هي مكان النار صارت تفور ماء. وهذا قول جمهور السلف، وعلماء الخلف. وقيل: التنور: فلق الصبح وتنوير الفجر، وهو ضياؤه وإشراقه، والأول أظهر. وحين فار التنور أمر الله نوحاً أن يحمل معه في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات ذكراً وأنثى. وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقربته ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي من قومك ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَاصِدَ وَمُنَاصِدًا وَنُوحًا فِيهَا رَحِيمٌ﴾ (٤١).

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَاصِدَ وَمُنَاصِدًا﴾ أي باسم الله يكون جريها على وجه الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوؤها، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة، وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٧) لِيَسْخَرُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ ﴿١٨﴾ [الزخرف: 12، 13] وفي الحديث: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: باسم الله الملك» وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين، فذكر أنه غفور رحيم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال، وهذه السفينة جارية على وجه الماء، سائرة بإذن الله، وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه. وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ...﴾ هذا هو الابن الرابع واسمه «يام» وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن، ويركب معهم، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون.

﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْهُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُصِّ الْأَمْرُ وَاسْتَوتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي شرع في النقص ﴿وَفُصِّ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديار ﴿وَاسْتَوتَ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق، وتطاوت، وتواضع هو الله عز وجل فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام. قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً. وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فل يبق لهم بقية.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾ أي قد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق ابني؟ وأنت أحكم الحاكمين.

﴿قَالَ يَسْئُرُكَ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَأْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ مِنَ

تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحِمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ .

﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدت بإنجائهم، لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً ﷺ، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدتك نجاتهم.

﴿قِيلَ يَنْتُوخُ أَمِيطْ أَمِيطْ بِرَحْمَتِي وَأَمْرٌ مِمَّا مَنَّ مَعَكَ وَأَمْرٌ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَسْتُهُمْ مِمَّا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤٨﴾ .

يخبر تعالى عما قيل لنوح ﷺ حين أرسى السفينة على الجودي من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ﴿قِيلَ يَنْتُوخُ أَمِيطْ بِرَحْمَتِي وَأَمْرٌ مِمَّا مَنَّ مَعَكَ وَأَمْرٌ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَسْتُهُمْ مِمَّا عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ .

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: هذه القصة وأشباهاها ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحها إليك على وجهها، كأنك شاهدتها. ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي وحياً منا إليك ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿٥١﴾ [غانر: 51] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصُورُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَلِيُّونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الصافات: 171 - 173] وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِذَا مَفْتُونُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها، واختلقوا لها أسماء الآلهة.

﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ جَرْراً إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

وأخبر هود قومه أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغى ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره.

﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢).

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلونه. ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه، ولهذا قال ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣).

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبىهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي بمجرد قولك: اتركوهم نتركهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤).

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي...﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام.

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ (٥٥).

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ أي طرفه عين.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦).

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ...﴾ أي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم. وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جاد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعدا في قولهم ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿أَنْتَهَسْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّا لَنُبَوِّئُ لَكَ مِنْ آلِهَةٍ إِلَهِ مِثْلَهُ أَيُّ شَكِّ كَبِيرٍ﴾.

﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (١٣).

﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فيما أرسلني به إليكم، أي على يقين وبرهان ﴿وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق، وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني، ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي خسارة.

﴿وَيَنْفَوِرَ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (١٤) ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْدُوبٍ﴾ (١٥) ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْمَعِزُّ﴾ (١٦) ﴿وَآخِذِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ (١٧) ﴿كَانَ لَمْ يَنْفَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ لَكُمْ رَهْمًا آلَا بَعْدًا لَشُعُودٍ﴾ (١٨).

«قال ابن كثير في هذه الآيات التي تشملها هذه الأرقام»: تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (١٩).

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٢٦) ﴿[هود: 74] قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ﴾ أي عليكم. قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي ذهب سريعاً فاتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقرة، حنيد: مشوي على الرصف، وهي الحجارة المحممة. ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْتِ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَيِّئٍ﴾ (٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ آلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٨) [الذاريات: 26، 27] وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُوطٍ﴾ (٢٩).

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همة

لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم.

﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١).

﴿فَضَحِكْتُمْ﴾ أي ضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم. وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الاياس. وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وقيل: ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة، وقيل: ضحكت: حاضت، أي بشرت بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق.

﴿قَالَتْ يَوْنَيْتِيْ ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢).

﴿قَالَتْ يَوْنَيْتِيْ ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ حكى في هذه الآية قولها، كما حكى في آية الذاريات فعلها ﴿فَأَنْبَأَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٧٩) [الحجر: 29] كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب.

﴿قَالُوا أَنْتَجِيبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (٧٣).

﴿قَالُوا أَنْتَجِيبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي قالت لها الملائكة: لا تعجبي من أمر الله، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجّد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ اجْعَلْ لَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤).

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: 31] قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام

عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: 32] قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ﴾ [العنكبوت: 32] فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) هذا مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة. وقد تقدم تفسيرها.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ مَا نَحْنُ بِمُخَوِّفِيهِ﴾ (٧٦).
﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ...﴾ أي إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحققت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧).

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم، وفارقوه، وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله، وله الحكمة والحجة البالغة فساء شأنهم، وضاعت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء عليه السلام وقال هذا يوم عصيب شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨).

﴿مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك. وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوهم على ذلك الحال عليه السلام قال ينفور هؤلاء بناتي هن أطهر لكم يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، فلم يكن من بناته، ولكن كن من أمته عليه السلام فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم. عليه السلام أليس منكم رجل رشيد أي فيه خير يقبل ما أمره به، ويترك ما أناه عنه.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ (٧٩).

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتيهن عليه السلام وإنك لنعلم ما تريد أي ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا؟ عليه السلام وإنك لنعلم ما تريد إنما تريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رَبِّي شَدِيدٌ﴾ (٨٠).

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ...﴾ أي لكنت نكلت بكم، وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: «رحمة الله على

لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه» فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٦﴾﴾ .
 ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقية لأهله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم. ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ ذكروا أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوما فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له، لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب، وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهددونه، فعند ذلك خرج جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا، وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكِّرِ ﴿٢٧﴾﴾ [القم: 37].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٧﴾﴾ .
 ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿فَنَشْنَبُهَا مَا عَشْنَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: 54] أي أمطرتنا عليها حجارة من سجيل، وهي حجارة من طين مستحجرة قوية شديدة، وقيل: مشوية ﴿مَّنْضُودٍ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء، أي معدة، لذلك، أو يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وقيل مسومة: مطوقة، بها نضج من حمرة ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه. وفي الحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وذهب الإمام الشافعي في قول عنه، وجماعة من العلماء إلى أن اللانظ يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث. وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقي من شاقق، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم، يقال لها مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَنَا هُرُّ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾ أي في الدار الآخرة.

﴿وَيَقَوْمٍ أَوْتَوْا إِلِكَبَالَ وَالْمِيرَاتِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ .

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ رزق الله خير لكم من بخسكم الناس، وقيل: وصية الله خير لكم، أو طاعة الله خير لكم، أو حظكم من الله خير لكم، أو ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100] وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي بريقب ولا حفيظ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه ليراكم الناس، بل الله عز وجل.

﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَوْلَاؤُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيسُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿٨٧﴾ .

يقولون على سبيل التهم قبحهم الله ﴿أَوْلَاؤُكَ﴾ أي قراءتك ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يُعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون الزكاة ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيسُ الرَّشِيدُ﴾ يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله، ولعنهم عن رحمته، وقد فعل.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾ .

يقول لهم أرأيتم يا قوم إن كنت ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي على بصيرة فيما أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فافعله خفية عنكم، أي لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي فيما أمركم وأناكم، إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع.

﴿وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩).

يقول لهم: ﴿وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ قيل: المراد في الزمان. قال قتادة: إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٩٠).

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من سالف الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب.

﴿قَالُوا يَسْتَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ﴾ (٩١).

يقولون: ﴿يَسْتَعِيبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كثيرًا﴾ من قولك ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي لولا معزتهم علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسبيناك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ﴾ أي ليس عندنا لك معزة.

﴿قَالَ بِتَقْوِيمٍ أَرَهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢).

﴿قَالَ بِتَقْوِيمٍ أَرَهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أتركونني لأجل قومي، ولا تتركونني إعظاماً لجلالة الرب تبارك وتعالى أن تتلوا نبيه بمساءة، وقد اتخذتم كتاب الله ﴿وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا﴾ أي نبذتموه خلفكم، لا تصعبونه ولا تعظمونه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم.

﴿وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣).

لما يش نبي الله شعيب من استجابتهم له قال لهم: يا قوم ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ على طريقتي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أي مني ومنكم ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ أي انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَلِيمِينَ﴾ (٩٤).

قوله: ﴿جَنِيثِينَ﴾ أي هامدين، لا حراك بهم. وذكر ههنا أنهم أتهم الصيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: 88] ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبت منهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: 187] قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 189] وهذا من الأسرار الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

﴿كَانَ لَرَّ يَنْتَوَى فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ شُعُودُ﴾ [٩٥].

﴿كَانَ لَرَّ يَنْتَوَى فِيهَا﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ شُعُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبهها بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [٩٦].

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملته.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [٩٧].

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْمَوْرُودُ﴾ [٩٨].

وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [الزمر: 16] وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۖ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَىٰ ۖ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۖ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۖ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: 21 - 26] وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرُدُ الْمَوْرُودُ﴾ [٩٨] وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38] وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أٰطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرٰةَنَا فَأٰضَلُونَا السَّبِيلَ﴾ [١٧] رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ [الاحزاب: 67، 68] روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار».

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّرُ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ﴿٩٩﴾ .

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعتان ﴿يَتَسَّرُ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ لعنة الدنيا والآخرة، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً بَدَعَتْ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ [الفصص: 41 - 42] وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿٩٦﴾ [غانر: 46].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿١٠١﴾ .

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم من أمهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي أخبارهم ﴿نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي هالك.

﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَّيِبٍ﴾ ﴿١٠٢﴾ .

﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَّيِبٍ﴾ غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٠٣﴾ .

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ...﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ﴾ ﴿١٠٤﴾ .

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجاننا المؤمنين ﴿لَآيَةً﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي أولهم وآخرهم كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47] ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١١٤﴾﴾ .

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١١٤﴾﴾ أي لمدة مؤقتة، لا يزداد عليها ولا ينتقص منها.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُوا إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: 38]. وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: (ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ مسلم مسلم). وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فمن أهل الجمع شقي، ومنهم سعيد كما قال: ﴿فَرِيْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيْقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]. روى الحافظ أبو يعلى أن عمر قال سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه، فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عمر، وجرت الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له».

﴿ثُمَّ أَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب عياداً بالله من ذلك.

﴿خَلْدِيكٍ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿خَلْدِيكٍ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله: أبداً فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال: ﴿خَلْدِيكٍ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ [إبراهيم: 48] وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كقوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلْدِيكٍ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 128] والاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبين والمؤمنين، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله» كما وردت الأخبار المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها.

﴿ثُمَّ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلْدِيكٍ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ

غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴿١١٨﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَنِيَّ الْجَنَّةِ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس . ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوفٍ﴾ غير مقطوع . وقد جاء في الصحيحين : «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» . وفي الصحيح أيضاً : «يقال : يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً» .

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾
نُصِبَهُمْ غَيْرَ مَقْصُوفٍ ﴿١١٩﴾ .

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿١٢٠﴾ .

ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به، ومن كافر به . فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغظنك تكذيبهم لك، ولا يهمنك ذلك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه كما قال : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] .

﴿وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لَوْ فَيَنْهَاهُمْ رَبُّكَ عَنْهَا لَعَلَّهُمْ إِنْ شَاءَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ ﴿١٢١﴾ .

﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها .

﴿فَأَسْقِمَتْ كَمَا أَمَرَتْ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٢٢﴾ .

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة، حتى ولو كان على مشدك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء .

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٣).

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عن ابن عباس: لا تداهنوا، وقال العوفي وعن ابن عباس: هو الركوب إلى الشرك، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥).

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ عن ابن عباس أي الصبح والمغرب ﴿وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ عن الحسن أي المغرب والعشاء. وهذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه في قوله. والله أعلم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، وفي الحديث: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له». وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: «من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه». وفي البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ . . .﴾ فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». روى الإمام أحمد «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦).

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير يتهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نعمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104) وفي الحديث: «أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب». وقوله: ﴿وَأَتَّبَعَ

الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا بِحُرْمَتِ اللَّهِ أَي اسْتَمَرُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا بِحُرْمَتِ اللَّهِ﴾ .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧) .

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحةً بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (١١٦) [الزخرف: 76] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [إبراهيم: 46].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم وغلهم ومذاهبهم وآرائهم.

﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩) .

﴿إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي وللاختلاف خلقهم، أو خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَآنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام، وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ

لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠) .

كل ما نقصه عليك من أنباء الرسل المتقدمين من أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداء الكافرين، كل هذا مما ثبت به فؤادك، أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي في هذه السورة، أو في هذه الدنيا، والصحيح الأول لأن هذه السورة مشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين وأهلك الكافرين.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١) .

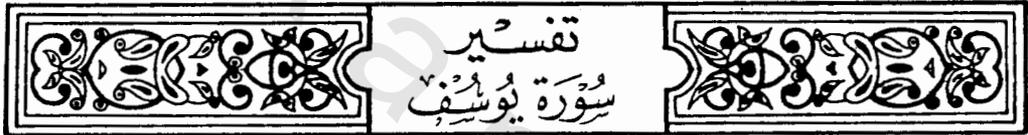
يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على طريقتكم ونهجكم ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا.

﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٢٢).

﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ أي فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه، وأناب إليه. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.



روى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا، لموافقها ما عندهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١).

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه، ولهذا قال: